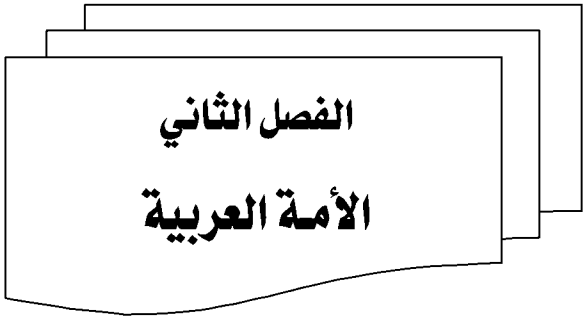
الفصل الثاني
الأمة العربية

العرب: نسبة إلى جد العرب العاربه: يعرب بن قحطان بن ارفشخيد بن سام بن نوح عليه السلام، الذي هو أول من نزل اليمن مع أخيه "يقطان" وحكمها. فكان العرب العاربة (الخالصة) في اليمن، يقابلهم العرب المستعربة الذين سكنوا بلاد العرب (شمال شبه الجزيرة العربية) وتكلموا العربية. والأعرابي: هو البدوي، والعرب هم الذين استوطنوا القرى والمدن. وقيل أن العرب سموا عربا لأنهم سكنوا وادي العَرَبات، ففي "لسان العرب، "وأقامت قريش بعربة فتنحت بها وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم إلى عربة".

هذا، واختلف الفلاسفة شرقا وغربًا في تحديد ما هي الأمة بل ما هي عناصر الأمة وحدودها المعنوية. منهم من قال إن الأمة هم القوم المشتركين في اللغة والتاريخ والجغرافيا ومنهم من أضاف إليها الدين ومنهم من اعتبر السوق المشتركة والمصالح اليومية بدلاً عن الدين.. ومنهم من رأى أمورًا أخرى كمحددات لمعنى الأمة.

لكن الأم هي التي ولدتنا أي الأم القريبة، وهي الأم أيضًا بمعنى الوالدة البعيدة التي ولدت من ولدتنا. لهذا قيل إن حواء: هي أمنا، وإن كان بيننا وبينها أزمان ووسائط من الأمهات. ويقال إن لكل شيء أم مهما كان سواء بشرًا أو غير بشر أو شيئًا آخر أو حتى مبدأ. ونفس الشيء الأمة هي كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا. وجمع أمة أمم، وقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم". سورة الأنعام - آية ٣٨

ويقال عن لفظ " قومية" بالعربية هو معادل وبديل للفظ "أمّيّة" والذي هو نسبة إلى أمة للدلالة على جماعة ينجذبون إلى بعضهم بروابط أمتن من التناقضات الطبيعية بينهم كبشر. العائلة هي أبسط أشكال النظام بين الأقرباء ثم الأوسع فالأوسع لتتشكل القبائل والشعوب والأمم. والأمة القومية هو مفهوم للاشتراك في المعتقد والعرق والوطن والمشاعر والولاء، وهي رابطة الدم والنسب والجوار والمصالح المشتركة بالضرورة.

من هنا كانت الأمة العربية هي اتحاد قلوب وألسنة وأحلام ودرب التزام أبدي، بدا على هيئة شعور عام. وأما الدين فهو علاقة علوية لكل إنسان للارتقاء الروحي لكي يجيب عن أسئلة ما بعد الإشباع والسأم والموت.

"الجذور التاريخية للقومية العربية" تختلف في معناها عن "الجذور التاريخية للوعي القومي العربي الحديث". لأنهما موضوعان مختلفان تماما، فالخلط بين الموضوعين ناتج عن الخلط بين القومية من حيث هي انتماء وبين القومية من حيث هي حركة تحرر. وهنا دعنا نجيب على سؤال: متى بدأ التاريخ العربي؟

قبل الإجابة لا بد أن نطرح أسئلة فرعية عساها توضح وتسهل الإجابة على السؤال الكبير. نسأل: ما هو التاريخ؟ هل هو تاريخ العرق العربي مثلاً؟ لا يستطيع أحد في القرن الواحد والعشرين أن يدعي بأن هناك عرقا نقيا من البشر في عالم اليوم المتحضر. ربما نجد عرقا نقيا لقبيلة تعيش بعيدًا عن الحضارة في غابات الأمازون مثلاً أو في ثلوج شمال كندا وألاسكا أو في أدغال إفريقيا أو في جزيرة منعزلة لم تصلها الحضارة في المحيط أو نجد أناسا معزولين يسكنون قمم الجبال الصعبة التضاريس لم تصلهم أسباب الحضارة والتطور. وحتى لو قبلنا بهذا الآن يجب ألا ننسى، بأن الناس في الأزمنة السابقة كانوا يعيشون بلا جوازات سفر ولا أجهزة أمنية وبدون تصاريح للتنقل وبدون منافذ حدودية محددة للدخول والخروج. كانت القبيلة تتنقل من منطقة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر من أجل الرعي أو تلحق بقطيع حيوانات الصيد الذي يظل في هجرة دائمة للحاق بمواطن الكلأ والرعي حسب الفصول.

إذا أتينا للحديث عن الوطن العربي الكبير عن سهوله وصحاريه وجباله وأنهاره، وعن البحار التي تحيط به، وعن موقعه الجغرافي بين قارات ثلاث. وبينما نحن نعلم عن خصائص علم الوراثة وأن الإنسان يأخذ جيناته ليس فقط من شخص واحد، فإن الحديث لا يصبح سهلا. الجنين يأخذ صفاته الوراثية مناصفة من الوالدين (الأم والأب)، وجيناته الوراثية تختلف عن جده لأمه وأبيه، ومن هنا يتبين أنه لا يوجد في هذا الزمن عرقا نقيا في شعب أو أمة. لهذا يقال عن العرب

بأنهم عرق واحد وأحيانًا عرق من الشمال وعرق من الجنوب ولا أحد يستطيع أن يحسم هذا. لكن على الأقل لا يمكن أن يقول أحد اليوم بأن العرب عرق واحد بعد أن تحول العالم إلى قرية صغيرة.

فإذا لم يكن العرب من عرق واحد فهل تاريخهم يبدأ منذ أن تحدثوا بلهجة قريش وبما اقترب منها من لهجات. هل نستطيع أن ندعي بأن العرب هم الجزء الذي هاجر من الجزيرة العربية وتحدث لغة قريش ونصمت. الاشوريون والكنعانيون والكلدانيون والمصريون أتوا أيضًا من الجزيرة العربية، لكن الكثيرين منا لا يقولون عنهم عربا وليس لهم صلة بتاريخ العرب. الأصوب هو القول، بأن العرب هم فرع من فروع التطور الحضاري الإنساني الكبير، الذي سكن البلدان المجاورة للجزيرة العربية. وبالقرآن والإسلام امتص هذا الفرع وأذاب في ذاته جميع الأقوام التي هاجرت أصلاً من الجزيرة العربية في السابق وأصبحت عربية في مصب النهر الإسلامي الكبير.

لو عدنا للإجابة على سؤالنا الأول العتيد "ما هو التاريخ العربي؟" ومتى يبدأ التاريخ العربي؟ نجد لا مندوحة سوى أن نقول، إنه يبدأ منذ بدء الحضارة الإنسانية كون التاريخ العربي يجمع كل ما صب في هذا الرافد الواسع من حضارات أفرزتها الجزيرة العربية على مدى القرون، وحيث أن الوطن العربي الآن ليس فقط الجزيرة العربية، وإنما أراضي وأقاليم واسعة لم تكن يومًا خالية من السكان الذين هم أيضًا اختلطوا بأعراق غازية قديمة وأصبحت جزءًا من بلاد العرب التي صهرها الإسلام. إذا يمكن القول أيضًا وبلا تردد، أن البربر والأمازيغ والفراعنة وغيرهم هم جزء من التاريخ العربي، وإلا لماذا انتشر الإسلام ووصل إلى فارس وأوروبا والصين واندونيسيا، وانتشرت العروبة فقط في المناطق التي نطلق عليها الوطن العربي الآن؟!

دعنا نلقي نظرة على الخريطة الطبيعية للوطن العربي، فماذا نشاهد؟ نجد ظاهرة فريدة لا يوجد مثلها في أوطان الشعوب الأخرى، هي سيطرة الصحراء على الوطن العربي، ونجد تماثلا حياتيا بين أهل البادية من طباع وعادات ونمط حياة ولهجات

بين البدو في كل الصحاري العربية رغم بعد المسافات.. نجد لهجة البدوي في صحاري مصر تختلف عن لهجة ابن مدينة القاهرة، لكنها قريبة جدًا من لهجة البدو في أي بلد عربي آخر، ونجد البدوي في صحراء العراق أقرب في لهجته إلى لهجات البدو في أي صحراء عربية أخرى لكن لهجته تختلف مع لهجة السكان في مدينة بغداد. ونفس الشيء في الصحاري والمدن العربية في الوطن الكبير.

إذن لماذا سقط العرب وانهارت الدولة تلو الدولة في تاريخ المسلمين ما داموا بهذه المثالية؟ إن ذلك يعود أولاً، لأن الدولة هي التي انهارت وليست الأمة العربية، فالأمة فوق الدولة والدولة اتحاد سياسي يقوم ويزول بل هو مظهر من مظاهر الأمة. كما أن سنن الله تعالى لا تتبدل فمن لم يعدل مثلاً تسقط دولته سواء كان مسلمًا عربيًا أم لم يكن، ومن جيل إلى جيل كانت تتقلب أحوال الناس والدول والأيام دول.

وأما الأطروحات الدنيوية التي لا تشتمل على المصير المشترك، لا تنتصر أمام الأعداء بما في ذلك خطابات الفكر الماركسي أو اليساري أو الاشتراكي أو الأممي التي شاعت خلال خمسينات القرن العشرين في أكثر من بلد عربي، فهي لا تملأ الفجوة النفسية والفكرية في الفرد والجماعة، لأن القومية بها أكثر من كل الخطابات القطرية الإقليمية من أمل بالتطور وتحقيق دعوى تمجد الفنون والرفاه والازدهار الاقتصادي كأعظم تطلعات فعل للتحضر الإنساني وهذه نقطة هامة. الماركسية مثلاً نادت بأشياء حضارية لكنها ألغت اللغة والعرق والنسب فلم تعش طويلاً. من شيم العرب الثقة بالنفس والاعتداد بالحسب والنسب، وفيهم خصائص الترفع والتحرر وعدم الخضوع. إن جميع المظاهر القومية وجدت عند العرب قبل الإسلام إلا المظهر السياسي، ولم تكف كل الروابط القومية ولا المصالح الأخرى بينهم لدفعهم للتواضع لصيغة الدولة حتى جاء الإسلام كدين فوحدهم، وفي ذلك آية: فعن سيدنا عمر بن الخطاب "إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نبتغي العزة بغيره)، والإسلام جاء تكريما للعرب باللغة العربية. فالعرب إذا أهله ودولته فإن أقاموا دولته أعزهم الله بها.

يأخذ أعداء القومية من العرب على حركة القومية العربية، بأنها حركة عصبية وهي تجَمُّعٌ على أساس قومي يُعلي رابطة الدم فوق غيرها حتى فوق العدل الذي يقرُّه الدين لأنه دين عدل ولأنه دين عالمي وليس قومي. فالقومية إن لم تكن في خدمة الدين فهي متناقضة معه بالضرورة حتى وإن لم تبد كذلك في العلن. لكن هذا الادعاء راح يحد من أثره التوجه الديمقراطي في المجتمع العربي الذي راح يحاول القفز وتجاوز المعوقات. هذا، وإن القول أيضًا بأن حركة القومية العربية كانت انفصالية عن الكيان الديني هو قول غير صحيح، لأنها بدأت كحركة وحدوية لإنشاء دولة العرب الكبرى، وليس لكي يصبح العرب أقطارا ودولا مقطعة كما فعل بها الحلفاء في معاهدة سايكس – بيكو عام ١٩١٦م.

تكاد تُجمع معظم الأمم المتقدمة حاليًا على ما يسمى بالإجماع القومي ، فالمعروف أن الدولة ما هي إلا مزيج من الأرض والشعب الذي يقيم عليها ولها حدود معروفة وذات سيادة عليها، والقوميات قد تستمد أصولها وقوتها من التنوع العرقي أو الديني ، ولعل الولايات المتحدة الأميركية من الأمثلة الناجحة للاجتماع القومي وعلى تعدد القوميات. فعلى النقيض من ذلك نجد أن هناك بعض الدول يكون شرط اجتماعها هو النقاء الديني، ولعل أبرز حالة بهذا الصدد دولة الباكستان والتي انفصلت عن دولة الهند بسبب الاجتماع الديني، وهاهي دولة الاحتلال (إسرائيل) تسعى لفرض هذا النموذج الديني على أرض فلسطين المحتلة، وذلك لإيجاد دولة دينية (يهودية) لا يحق لغير المتدينين باليهودية العيش فيها، غير ان دافعها في الأساس سياسي مصلحي للتخلص مما تبقى من الفلسطينيين في أرض آبائهم. ومثل هذا النوع من الدول لن يعرف الاستقرار ما دام يأخذ اتجاه عكس تيار العصر.

وأما القول بأن القومية العربية في تناحر وخلافات مستمرة في الوقت الحاضر مما أدى إلى وهن وضعف وتشتت أصحابها لأنها ليست على أساس ديني، فهي وإن لم تدعو إلى التخلي عن الدين فإن ما يحدث ما هو إلا غليان فكري وتطور في طريقه إلى النضوج حتى يعود الكل إلى راية دولة الوحدة وتعود أمجاد الحضارة العربية الإسلامية في ظل القومية العربية. بل إن الفروقات والخلافات التي يعيشها العرب

اليوم ما هي إلا بسبب التطور وعوارض طريقه، وأما العالم العربي فكان حتى بداية القرن العشرين يعيش في المرحلة التي كانت تعيشها أوروبا في العصور الوسطى، وهذا يدل ويبشر بأن الدعوة إلى الوحدة العربية بأخذ معطيات العصر هي خطوة في الاتجاه الصحيح، وقد شاهدنا كيف تحرر الوطن العربي من الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى، وكيف راح الغليان الفكري يفيض في كل ناحية مما دفع إلى فوران الانقلابات العسكرية في منتصف القرن العشرين ثم الثورات الشعبية التي اجتاحت البلاد العربية شرقا وغربا في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين حتى وإن حاول الغرب احتواءها.

لقد كان الدين كما نعرف يحكم المجتمع في أوروبا إبان العصور الوسطى الباكرة، وكان هناك مفهوم اسمه العالم المسيحي الشبيه بالعالم الإسلامي اليوم. في ذاك الزمن كانت السلطة للبابا في روما على كل العالم المسيحي، أي أنه شبيه بالخليفة إلى حد ما لدى المسلمين فلم تكن الخلافة الإسلامية دائمًا مركزية الحكم. وكان البابا يمنح السلطة السياسية بالوكالة لبعض الملوك والأمراء الإقطاعيين الذين كانوا يحكمون باسمه على أساس أنهم موكلون منه، وهذا طبعًا كان كلاما نظريا بحتا... حيث أن البابا نادرا ما استطاع أن يخلع أي ملك ومثل هذا كان يحدث أيضًا في دولة الإسلام فحكام الولايات الإسلامية كانوا بمرتبة ملوك أوروبا المفوضين من قبل بابا روما. كان النظام السائد في أوروبا هو النظام الإقطاعي، وفي هذا النظام يتوجب على كل شخص أن يبايع الأمير أو الكونت أو الدوق الذي يملك المنطقة التي يعيش فيها على السمع والطاعة... وكان أهم متطلبات البيعة الإقطاعية هو أن يقاتل الشخص مع ملكه أو أميره إذا دعاه إلى ذلك، وكان الأسياد الإقطاعيون يستخدمون الدين بشدة لتحفيز الناس على طاعتهم... وطبعا هذا النظام هو مطابق للنظام الذي كان سائدا في العالم الإسلامي، حيث يبايع الناس الخليفة أو الوالي أو الأمير على السمع والطاعة ويتوجب عليهم الجهاد معه إذا دعاهم إلى ذلك، والمبرر هو الدين... وطبعا هذا النظام تم انتقاده بشدة بالغة في أوروبا فيما بعد (في عصر النهضة وما تلاه) واعتبر الأوروبيون أن النظام الإقطاعي استغل الدين لغرض تخدير الشعوب وجعلها مسخرة بيد الحكام... وللأسف أن العقل

العربي الإسلامي في نواحي كثيرة مازال يعيش في مرحلة العصور الوسطى إلى الآن، ومازال كثير من المسلمين يظنون أن نظام الحياة الصحيح هو أن يكون هناك حاكم نطيعه كلنا بدون تفكير تحت حجة أنه يقيم الدين اسمًا.

هذا، ولما كانت شعوب أوروبا تختلف في لغاتها فقد نشأ الشعور الوطني أو القومي National لكل قوم، وهي كلمة واحدة في اللغات الأجنبية حيث ليس هناك فرق بين الوطنية والقومية، بعكس معناها باللغة العربية.. وكانت بداية نشوء هذا الشعور عندما حاول ملك بريطانيا في نهاية العصور الوسطى "أدوارد الثالث" ضم فرنسا إلى ملكه بحجة انه الوريث الشرعي بعد وفاة الملك الفرنسي (الذي كان جده من أمه)، ولكن النبلاء الفرنسيين رفضوا دعوة الملك الإنكليزي ونشأ ما يسمى بحرب المائة عام، وهذه الحرب الطويلة هي التي أدت إلى نشوء الشعور القومي أو الوطني في فرنسا... حيث شعر الفرنسيون بوجود رابط مشترك بينهم يميزهم عن الإنكليز وهو اللغة والأرض.

ونفس الشيء حدث في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في الدويلات الألمانية، حيث في ذلك الزمن لم تكن هناك دولة اسمها ألمانيا ولكن مجموعة كبيرة من الدويلات الناطقة بالألمانية، أهمها النمسا وبروسيا. كان دافع القومية الألمانية رغبة الألمان في أن يكونوا قوة مؤثرة في أوروبا، وهذا لا يتحقق إلا بتوحدهم وتحولهم إلى دولة كبرى تضاهي فرنسا والإمبراطورية البريطانية، وبسبب هذا الدافع حاول الفلاسفة والمفكرون الألمان تبرير الأفكار القومية وفلسفتها وجعلها أمرا مطلوبا ومرغوبا... وطبعا في النهاية قام الاتحاد الألماني في عام ١٨٧١م تحت مسمى "دويتشلاند" أو بالعربية ألمانيا، وذلك بعد جهد جهيد وعدة حروب (ما عدا النمسا التي بقيت خارج الاتحاد بسبب خصومتها مع بروسيا التي قادت الوحدة)... وكانت نتيجة قيام ألمانيا اندلاع الحرب العالمية الأولى ثم الثانية.

يمكن القول إن تطور ظهور الأفكار في الغرب هو:

١- العصر القبلي (قبل انتشار المسيحية في الغرب).

٢- العصر الديني أو الإقطاعي (في العصور الوسطى، بعد أن نشر شارلمان المسيحية في أوروبا وتوجه البابا ملكًا على الغرب.

٣- العصر الوطني أو القومي، والذي تحول إلى العصر الإمبريالي أو الإمبراطوري أو الاستعماري.

٤- العصر الاشتراكي الذي فشل فشلاً ذريعًا في التطبيق على أرض الواقع رغم أنه يبدو فكرًا بديعًا.

لو ألقينا نظرة على العالم الإسلامي اليوم رغم كل الهزات التي تعرض لها وما أصاب من ثروة، نجد أن المسلمين لم يتجاوزوا المرحلة الثانية من مراحل تطور الشعوب الأوروبية، رغم إقرارنا بخصوصية الثقافة الإسلامية والفرق بين تطبيق الشريعة الإسلامية وبين ممارسات الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى التي أفضت إلى التمرد عليها.

كانت مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر أول من تأثر من الولايات العثمانية بالفكر القومي الغربي. وقد حدث كما هو معروف أن تمرد "محمد علي" والي مصر على الدولة العثمانية، فكان نشوء الدولة المصرية الحديثة. ومعروف أن هذه الدولة كانت على اتصال كبير جدًا بالغرب بل إن الغرب هو من ساهم في إنشائها وقام بسلخها عن دولة بني عثمان، ولذلك نشأ في مصر فكر قومي أو وطني مصري بتأثير الغرب، أما باقي العالم الإسلامي فليس فيه هكذا أفكار قطرية.

وفي أواسط القرن التاسع عشر وبعد أن استفحلت الأفكار القومية في تركيا، نشأ في سورية تيار بين النخب يدعو إلى قيام قومية عربية، وهذا التيار كان مجرد رد فعل على القومية التركية، والقوميون العرب في ذلك الحين لم يطالبوا بالانفصال عن تركيا بل طالبوا بالحقوق الثقافية واللغوية والسياسية للعرب، حيث معروف أنه أثناء العصر العثماني حصل انحطاط شديد في اللغة والثقافة العربية حيث أن

المفكرين والأدباء السوريين هم الذين أحيوا اللغة العربية وصنعوا هذه اللغة الحديثة التي نكتب بها الآن والتي تسمى باللغة العربية الفصحى. أما قبل ذلك فلم يكن هناك سوى لغة القرآن والحديث والشعر وكتب الدين... ولهذا السبب نرى أن طريقة لفظ الحروف في اللغة العربية الفصحى هي كما في اللهجة السورية وليس كما في الوصف الوارد في كتب اللغة القديمة، والذي هو أقرب للهجات البدوية.. مثلاً حرف "ض" في اللغة الفصيحة القديمة كان يلفظ بصوت غريب أقرب شيء له هو حرف "ظ"، ولكن اللفظ الفصيح حاليًا هو اللفظ السوري الشبيه بحرف "د"، وكذلك حرفا "ج" و"ق" كانا يلفظان أصلاً بلفظين غريبين يوجدان حاليًا في السودان، ولكن اللفظ الفصيح الحالي هو اللفظ السوري. وطبعًا معروف أن العرب في العصر العثماني لم يكن لهم أي حقوق سياسية، حيث كان الأتراك يأخذون أبناء العرب من سورية والعراق والحجاز للحروب في أوروبا ولا يقولون لهم حتى إلى أين يأخذون أبناءهم، وكانوا يعاملون العرب كالعبيد.

لهذا يمكن القول بأن القومية العربية في أصلها ومبتغاها، كانت حركة حقوقية تطالب بالمساواة وبحقوق العرب الثقافية، ولذلك فهي ليس لها طابع قطري معزول. القومية العربية لم تتحول إلى حركة تمرد على العثمانيين إلا أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان هدف القوميين العرب حينها هدفًا جميلاً وهو إقامة دولة عربية في الأقاليم العثمانية العربية (سورية والعراق والحجاز) يحكمها ملك هاشمي هو شريف مكة، ولكن معروف أن بريطانيا خدعتهم وقامت بتقسيمهم إلى دويلات صغيرة، وخاصة في الشام بهدف زراعة إسرائيل التي ما زالت تتوسع قوة وتأثيرًا على حساب العرب.

إذن الفكر القومي العربي لا يعادي الإسلام وليس نقيضًا له ولا يلغيه ولا ينكره بل يعيد شعلته إلى أصحابها إذا ما استطاعوا النهوض بها، هو فكر بسيط جدًا يريد للعرب أن يتوحدوا ويكونوا أمة كبيرة ومحترمة في العالم... الفكر القومي العربي يس فيه عصبية قومية ولا أي شيء من هذا القبيل، مفهوم العروبة هو مجرد رابط مشترك لتوحيد العرب، وأصل معظم من يشملهم هذا المفهوم ممن ليسوا عربًا

حقيقيين (بمعنى أنهم ليسوا من أبناء القبائل العربية القديمة)، ولكن الهدف من هذا المفهوم هو الوحدة وأن نكون بلدا كبيرًا وذا مهابة. القومية العربية في أصلها هي مجرد حركة وحدوية نهضوية تقدمية متطورة وليست حركة قومية مغلقة بالمعنى الحرفي للكلمة، وأكبر دليل على ذلك، هو، أن التيارات القومية والوحدوية نيرانها لم تخبو على مدى سنوات القرن العشرين وحتى الآن في سورية ولبنان والعراق واليمن ومصر وليبيا والجزائر وغيرها، وأن لا مواطنا عربيًا من المحيط إلى الخليج لا يتمزق وهو يعيش في هذا الزمن بسبب احتلال فلسطين من قبل الصهاينة الغاصبين.

▪ اللغة العربية

يعتبر العرب أكبر المجموعات السامية المتحدثة باللغة العربية، والعرب أيضًا من أكثر الشعوب التي تعتد بأصلها وبلغتها، كما أن اللغة العربية هي إحدى أكثر اللغات انتشارًا في العالم أيضًا، حيث يتحدثها أكثر من ٤٢٢ مليون نسمة، ويتوزع متحدثوها بشكل خاص في المنطقة المعروفة باسم الوطن العربي. هذا بالإضافة إلى العديد من المناطق الأخرى المجاورة للوطن العربي كالأهواز (في إيران) وتركيا وتشاد ومالي والسنغال وإريتريا. وتعتبر اللغة العربية ذات أهمية قصوى لدى المسلمين، فهي لغة مقدسة (لغة القرآن الكريم)، فلا تتم الصلاة في الإسلام إلا بإتقان بعض من كلماتها. كما أن اللغة العربية هي أيضًا لغة شعائرية رئيسية لدى عدد من الكنائس المسيحية في الوطن العربي. وكتبت بها الكثير من أهم الأعمال الدينية والفكرية اليهودية في العصور الوسطى. ولقد أثر انتشار الإسلام وتأسيسه دولاً في ارتفاع مكانة اللغة العربية، وأصبحت لغة السياسة والعلم والأدب لقرون طويلة في الأراضي التي حكمها المسلمون خصوصًا في الأندلس، وأثرت اللغة العربية تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر على كثير من اللغات الأخرى في العالم الإسلامي، كالتركية والفارسية والكردية والماليزية والأوردية والإندونيسية والألبانية وبعض اللغات الإفريقية الأخرى مثل الهاوسا والسواحلية، وكذلك أثرت

العربية في بعض اللغات الأوروبية وخاصة المتوسطية (منطقة البحر الأبيض المتوسط) كالأسبانية والبرتغالية والمالطية والصقلية. كما أنها تدرس بشكل رسمي أو غير رسمي في الدول الإسلامية والدول الإفريقية المحاذية للوطن العربي.

هذا، وتعتبر اللغة العربية لغة رسمية في كل دول الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، إضافة إلى كونها لغة رسمية في تشاد وإريتريا وإسرائيل (فلسطين المحتلة). ومنذ عقود أضحت اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية الست الرسمية في منظمة الأمم المتحدة. تحتوي العربية على ٢٨ حرفا مكتوبًا. ويرى بعض اللغويين أنه يجب إضافة حرف الهمزة إلى حروف العربية، لكي يصبح عدد الحروف ٢٩. وتكتب اللغة العربية من اليمين إلى اليسار - مثلها اللغة الفارسية والعبرية وعلى عكس الكثير من اللغات العالمية التي تكتب من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى الصفحة إلى أسفلها. وبالنسبة لأصل اللغة العربية هنالك العديد من الآراء في هذا لدى قدامى اللغويين العرب فيذهب البعض إلى أن "يَعرب بن قحطان" كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي فسميت اللغة باسمه، وورد في الحديث النبوي أن نبي الله إسماعيل بن إبراهيم هو أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن أربعة عشر ربيعا بينما نَسِي لغة أبيه إبراهيم، أما البعض الآخر فيذهب إلى القول أن العربية كانت لغة آدم في الجنة إلا أن ذوي الرأي من العلماء يؤكدون بأن لا وجود لبراهين علمية أو أحاديث نبوية ثابتة ترجح أيًا من تلك الادعاءات.

وحسب "معهد الصيف العالمي للغويات"، فالعربية لها كثير من اللهجات عابرة الحدود عادةً، والتي يمكن تقسيمها حسب الأماكن الجغرافية إلى:

١- لهجات شبه الجزيرة العربية.

٢- اللهجة الخليجية: يتحدث بها سكان دول الخليج العربي مثل الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة، إضافة لبعض أنحاء سلطنة عمان والسعودية.

٣- اللهجة العمانية: وهي تُعرف أيضًا باللهجة العُمانية الحضرية، ويتحدث بها سكان جبل الحجر في سلطنة عمان وبعض مناطقها الساحلية المجاورة. وكان

أغلب التجار العرب قاطنين سواحل كينيا وتنزانيا يتحدثون بها إضافة إلى المسلمين من سكان تلك البلاد، إلا أن معظمهم اليوم تحول ليتحدث باللغة السواحلية.

٤- اللهجة الحجازية: يتحدث بها سكان منطقة الحجاز في المملكة العربية السعودية، والحجاز في الواقع يحوي مجموعتين من اللهجات، الأولى ينطق بها سكان الحجاز من البدو الرحّل وتشابه اللهجة النجدية، والثانية يتحدث بها الحضر، أي سكان مدائن جدة، مكة ، ينبع، رابغ، والمدينة المنورة وتشابه لهجة أهل الخرطوم في السودان وسكان صعيد مصر.

٥- اللهجة النجدية: يتحدث بها سكان منطقة نجد في وسط السعودية وبعض المناطق في بادية كل من الأردن وسورية والعراق.

٦- اللهجة البحرينية: يتحدث بها سكان البحرين وبعض أجزاء المنطقة الشرقية في السعودية، إضافة لبعض أنحاء عُمان.

٧- اللهجة الظفارية: يتحدث بها سكان منطقة صلالة وجوارها في محافظة ظفار بسلطنة عمان.

٨- اللهجات اليمنية: يتحدث بها سكان اليمن وجنوب غرب السعودية، إضافة إلى سكان الصومال بما فيه منطقة أرض الصومال وجيبوتي، وهي تنقسم إلى عدد من اللهجات بدورها هي: اللهجة الحضرمية واللهجة الصنعانية واللهجة التعزية والعدنية.

٩- اللهجة العراقية: ويتكلمها حوالي ٢٩ مليون شخص في العراق إضافة إلى سكان إقليم الأهواز (عربستان) والمناطق الشرقية من سورية. وتظهر فيها اختلافات واضحة بطريقة النطق، فسكان جنوب البلاد ينطقونها بشكل مشابه لنطق سكان شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، بينما تختلف طريقة نطق سكان الشمال بها. وتتفرع منها بضع لهجات يتكلمها سكان المناطق المجاورة في سورية وإيران وتركيا، ومن أمثلتها اللهجة المصلاوية التي يتحدث بها قرابة ٧ ملايين شخص في شمال البلاد، شمال سورية، والأقاليم السورية الشمالية (جنوب شرق تركيا حاليًا).

١٠- لهجات بلاد الشام، وتتفرع منها: اللهجات السورية واللهجات اللبنانية والأردنية واللهجات الفلسطينية. ويتحدث بها ٥٠ مليون شخص تقريبًا في كل من: لبنان وسورية والأردن وفلسطين وإسرائيل وقبرص وتركيا. وهي من أقرب اللهجات إلى الفصحى ومن أكثرها فهمًا وتداولاً، وخصوصًا بعد الانتشار الواسع الذي حققته الأعمال الدرامية السورية. نادى بعض المفكرين والداعمون لفكرة "الوطن السوري" أو "سورية الكبرى" باعتبار هذه اللهجة لغة مستقلة، كما نادى البعض الآخر باعتبار اللهجة اللبنانية لغة مستقلة أيضًا.

١١- اللهجة المصرية: يتكلمها حوالي ٨٥ مليون شخص في مصر، وهي تعتبر أكثر اللهجات فهمًا في الوطن العربي، وذلك بسبب الانتشار الواسع للأفلام والمسلسلات التلفزيونية المصرية بالإضافة إلى الأغاني. تتفرع منها بضعة لهجات مثل اللهجة الصعيدية، اللهجة الإسكندرانية، واللهجة القاهرية. يتجه بعض الأقباط والليبراليون المصريون إلى اعتبارها لغة مستقلة عن اللغة العربية، ويطلقون عليها اسم "اللغة المصرية الحديثة"، بعد أن كانوا يطلقون عليها سابقًا "اللغة المصرية العامية".

١٢- اللهجة السودانية: يتحدث بها سكان السودان، وتتفرع منها عدة لكنات، نظرًا لمساحة البلاد الشاسعة ولوجود عدد من المجموعات العرقية والقبائل المختلفة فيها، والتي تختلف طريقة لفظ كل منها لمخارج الحروف.

١٣- اللهجة التشادية: يتحدث بها سكان تشاد بشكل رئيسي، وهي شائعة في بعض أنحاء مالي والكاميرون والنيجر وشمال نيجيريا وغرب السودان. يبلغ عدد متكلميها حوالي المليون، وهي تعتبر لغة تواصل مشترك في معظم أنحاء المنطقة المنتشرة فيها.

١٤- اللهجات المغاربية، وتتفرع منها: اللهجة الحسانية، اللهجة المالطية، اللهجة الجزائرية، اللهجة التونسية، اللهجة الليبية، اللهجة المغربية، اللهجة الصقلية (منقرضة)، واللهجة الآندلسية (منقرضة). ويتحدث باللهجة المغاربية حوالي ٩٠ مليون شخص في كل من المغرب وموريتانيا والصحراء الغربية والجزائر وتونس وليبيا والنيجر وبعض أنحاء مالي وشمال غرب مصر، وغالبًا ما يعتبر باقي العرب

هذه اللهجة أبعد اللهجات عن العربية الفصحى حيث تأثرت هذه اللهجة باللغة الامازيغية وباللغة الفرنسية عبر العصور، وإن كان تأثير هاتين اللغتين مختلفًا باختلاف المنطقة لكن هذا التأثير يزول مع تقادم الأيام وانتشار التعليم. كانت اللهجة الأندلسية لهجة سكان الأندلس من عرب ومستعربين (إيبيريين، وقوط، وصقالبة وأمازيغ)، وقد استمرت حتى القرن الخامس عشر، أما اللهجة الصقلية، فقد كان الناس يتحدثون بها في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا حتى القرن الرابع عشر، عندما تطورت إلى اللغة المالطية.

ولو تم الأخذ بالمنهج العلمي على ما توصلت إليه علوم اللسانيّات والآثار والتاريخ فإن جلّ ما يُمكن قوله أن اللغة العربية بجميع لهجاتها انبثقت من مجموعة من اللهجات التي تسمى بلهجات شمال الجزيرة العربية القديمة. أما لغات جنوب الجزيرة العربية أو ما يسمى الآن باليمن وأجزاء من سلطنة عمان فتختلف عن اللغة العربية الشمالية التي انبثقت منها اللغة العربية، ولا تشترك معها إلا في كونها من اللغات السامية، وقد كان علماء المسلمين المتقدمين يدركون ذلك حتى قال أبو عمرو بن العلاء (٧٧٠م): "ما لسان حميَر بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا."

وأما اللغة العربية الفصحى فتقول الكتابات عن اللغة أنها تطورت إلى اللغة الحديثة عبر مئات السنين، أي بعد مرور أكثر من ألفي سنة على ولادتها فأصبحت قبيل الإسلام لغة مُضر وكانت تستخدم في شمال الجزيرة وقد قضت على اللغة العربية الشمالية القديمة وحلت محلها، بينما كانت تسمى اللغة العربية الجنوبية القديمة "لغة حمير" نسبة إلى أعظم ممالك اليمن آنذاك. وما كاد النصف الأول للألفية الأولى للميلاد ينقضي حتى كانت هناك، لغة لقريش، ولغة لربيعة، ولغة لقضاعة. وتلك تسمى لغات وإن كانت ما تزال في تلك المرحلة لهجات فحسب، إذ كان كل قوم منهم يفهمون غيرهم بسهولة بحكم الجوار والانغلاق في شبه الجزيرة العربية.

▪ القومية العربية

القومية العربية هي الأيديولوجية والتفسير السياسي للفكر القومي، الذي هو قطعًا ليس ترفًا فلسفيًا ولا أضغاث أحلام أو خيال، وإنما هو بعث أمة لكي تعيش الحياة بثقافة خاصة. إن قوة الحياة على الأرض العربية تكمن في انبعاثها من حالة السكون إلى حالة النهوض. فالقومي العربي المخلص هو الذي ينتمي إلى أمته قولا وعملا، مستلهما من قناعاته الوعي بصعاب الحاضر وقضايا المستقبل وتحدي كل ما يواجه أمته أو يمنعها من الانطلاق، بل هو من يزيل الصعاب من طريق الأجيال القادمة. لهذا كان لا بد أن يصبح العربي مستقلاً روحيًا وعقليًا، ولا بد أن يجعل للكرامة حيزًا في نفسه، وللحرية موقعا عاليا في تفكيره، وللديمقراطية الحقيقية أثرًا في تصغير الأنا فيه. وما لم ندرك هذا كمواطنين ونعمل به فإننا لن نعتبر أصحاب إرادة قادرة ومستقلة.

فمهما تجملت القطرية العربية ووضعت من الزخرف على دولها، فإن هذا لم يمنع من كشف ضعفها وتبعية قرارها للغير واحتمائها بالقوى الخارجية، بل ويفضح ضعفها عن حماية حقوق المواطنين فيها، وحماية الوطن وسلامة أراضيه. فما دام الأمر هكذا فكيف لا تبحث الشعوب العربية عن فرصة للتحرر من الواقع القطري وتسعى إلى الاتحاد الشامل الذي يخلق فيها القوة والمنعة لأجل أن تستعيد مكانتها بين أمم الأرض. لم يبق شيء في الواقع الحالي للأمة العربية المهانة في هذا العصر إلا ويدعو إلى ثورة غاضبة. فإذا كان انتماؤنا لهذه الأمة هو قدرنا، فإن الوفاء لهذا الانتماء يفرض علينا الدفاع عن وجودنا، ويجعلنا نتمسك بالقيم التي أشرنا إليها. إن الوطن العربي الكبير الذي يحتضن مجتمعًا يتكون في عمومه من شعب شعوره وحلمه وانتماؤه قومي عربي، تربط أواصره اللغة والدين والتاريخ والمصير المشترك. فهذا الواقع الراهن المجزأ أمرا شاذا، يستدعي الثورة والتغيير وكشف من يتنطعون بالشعارات القومية من أصحاب الكراسي والمصالح الذين يكرسون القطرية، وهم الذين إذا حاوروا من أجل الوحدة إنما يتحدثون بروح إقليميتهم.

إن الهوية القومية هي نتاج تاريخي وجغرافي متداخلين، أما بالنسبة للتاريخ فإنه يمثل اتجاه الهوية القومية إلى أعلى صعودا إلى الأمام، جالبا معه (التاريخ) خلال اتجاهه المستقبلي أشكالا تراثية ومدلولات اجتماعية وثقافية إلى الأجيال الجديدة، فالتاريخ يعمل على تشكيل هذه الأجيال ضمن خلفية اجتماعية متماثلة. وأما الجغرافيا فتمثل الامتداد الأفقي للهوية القومية، وهي وإن كانت لا تنطوي على عناصر في تكويناتها فإن بها إسهامات إنسانية محلية وعالمية وتفاعل مع حضارات وثقافات الأمم والشعوب الأخرى عبر المرور والأحداث.

من هذا نستنتج بأن الهوية القومية، هي نتيجة الرغبة في العيش والبناء المشترك في حال موضوعي أنشأه التاريخ، وذلك لوجود عوامل موضوعية عديدة سابقة فرضت نفسها على الرغبة في العيش المشترك، وصنعت خصوصية اجتماعية لقوم من البشر، لها ما لها من خصوصية الثقافة والعادات الموروثة واللغة التي يتخاطب بها الناس. إذا الهوية القومية ليست شيئًا ساكنا، لأنها نتاج حركة وتطور دائم، ولذلك تتجدد دائمًا مثل كل شيء مع حركة التاريخ.

تشير نقوش آشورية ترجع إلى الفترة مابين 857 ق.م إلى نهاية القرن السابع ق.م إلى تواجد العرب على طرق التجارة القديمة في بادية الشام بين الفرات والعقبة وحول دومة الجندل، وثمود وسبأ، وتتحدث عن ممالك ومراكز تجارية وحربية. وقد أجمع معظم الباحثين على أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي لمنشأ العرب حيث كانت منها الهجرات إلى المناطق المجاورة في بلاد الشام والعراق ومصر، وأصبح مع الأيام والقرون كل من يتحدث العربية في هذه المناطق عربيًا.

قبل القرن السادس الميلادي وظهور الخط العربي، كان العرب يستعملون خط المسند والآرامي. لكن لم يكن نهوض العرب إلا حينما ارتبطت نهضتهم باليقظة التي شهدتها جزيرة العرب وتلازمت ببزوغ الدعوة الإسلامية. فكانت جزيرة العرب من وجهة النظر الحضارية المكان الذي شهد تأسيس أول دولة مركزية للعرب، وباعتناق الإسلام دخل الموروث الثقافي للقوم، ومنذ ذلك الحين أصبح الإسلام مساهما نشطا في صنع تاريخ العرب.

مسند	𐐀	𐐂	𐐃	𐐄	𐐅	𐐆	𐐇	𐐈	𐐉	𐐊	𐐋	𐐌	𐐍	𐐎
عربي	أ	ب	ت	ث	ح	خ	ج	ش	س	س	ر	ك	ن	ف

𐐏	𐐐	𐐑	𐐒	𐐓	𐐔	𐐕	𐐖	𐐗	𐐘	𐐙	𐐚	𐐛	𐐜	𐐝
ق	ص	ض	ط	ظ	د	ذ	ز	ع	غ	ي	هـ	ل	م	و

- الخط المسند -

لا شك بأن الحياة في جزيرة العرب قبل الإسلام كانت تمثلها صعوبة الحياة من حرارة شديدة وتضاريس صحراوية، جبال ووديان وسهول ورمال، شح فيها توفر المياه، وفوق هذا كانت الشمس لافحة على مدى العام. كان لقساوة المناخ والجغرافيا أثر لا بأس به على العرب، فقد حماهم من تدخلات الأقوياء والمحتلين، وإبقاءهم بعيدين عن متناول الغزو من قبل الثقافات الأخرى، فعاشوا في الواحات بعيدًا عن الأغراب. وكان شظف العيش رافدا لمجتمعات الشمال حيث استمرت الهجرات من البادية ومن الواحات المحيطة بها إلى المناطق الغنية، حيث خصوبة الأرض ووفرة المياه.

أما الموقع الاستراتيجي للعالم العربي في وسط العالم القديم، فقد أعطاه أهمية اقتصادية بسبب مرور قوافل التجارة فيه من الشرق إلى الغرب وبالعكس، وهو ما أفاد السكان اقتصاديًا وصنع تجارة بينهم، وعمل على استمرار الحياة في هذه المنطقة، بل وجعل التواصل بين أهلها يسيرًا مما ساعد على توحيد الفكر والعادات والتقاليد وأبقى لغة مشتركة بينهم، وأبقى خصوصية وتميزًا لأهل المنطقة. وعمل كل هذا منذ الألف قبل الميلاد على تشكيل كيانات عديدة مستقلة خاصة بهم عمرت طويلاً بالرغم من محاولات جيرانهم الأقوياء من روم وفرس إخضاع تلك الكيانات والسيطرة عليها.

لقد ساعدت تلك الخصوصية العربية أن تجعل العربي يتفاعل مع ظروف بيئته، وأن يتمرد أحيانًا على نفسه، وكثيرًا ما كانت تحدث النزاعات بين قوم وقوم في الصحراء وبين قبيلة وقبيلة حتى في المنطقة الواحدة، فكثر الغزو بين القبائل مثلاً. فكان لهذا أيضًا مآثر، منها فضائل يعتد بها العربي، مثل الفروسية والشجاعة والإقدام والإيثار والمروءة والتمسك بالقيم المشتركة، ومن هنا تبلور نظام الولاء للقبيلة إلى ولاء أكبر إلى الأرض والموروث الثقافي الذي تم التعبير عنه باللغة العربية. وهكذا صارت اللغة العربية لسان عموم أرجاء الجزيرة العربية والتخوم الجنوبية للعراق والشام، بالحيرة وبادية الشام. وما كاد القرن السادس يهل وبرز الخط العربي إلا وانتشر الأدب والشعر في شتى الأرجاء، فوجدت الروابط الثقافية والاجتماعية وتعمقت بين القبائل العربية.

ما كاد الإسلام يهل حتى اتسعت بلاد العرب وازدهرت حضارتها بفعل الفتوحات الإسلامية. فتأثر العرب بتيارات فكرية جديدة ممن اعتنقوا الإسلام وأتوا ببعض من ثقافاتهم وحضاراتهم، وأضحت التيارات الفكرية عامل إثراء وتطوير للثقافة. ورغم أن العوامل الروحية لا يمكن لأحد أن ينكر فضلها على العرب وحضارتهم الإسلامية، فإن عوامل أخرى موضوعية ساهمت كثيرًا في إذكاء الموروث الثقافي عند العربي، لأن الحضارات لا تنشأ من فراغ وليست عديمة الجذور عن تراكمات الماضي. إن مكونات الحضارة الإسلامية لم تنشأ بين ليلة وضحاها إنما تشكلت بفعل عوامل موضوعية بسبب التراكم والتواصل المستمر. إن التحديات التي تواجه أمة من الأمم، تدخلها في امتحان جاد مع إرثها ومخزونها الحضاري. من هنا سنرى كيف تطور وعي العرب وتكونت هويتهم القومية:

لقد بدأ الوعي العربي في التشكل قبل الإسلام بوقت طويل، وتبين هذا في الأشعار والنثر وفي أسواقهم التجارية وكياناتهم الثقافية والسياسية، فاستقر في وعيهم أنسابهم وهو ما يدل على هويتهم العربية. وهو ما جعلهم أيضًا لردح طويل من الزمن حاملي مشعل الحضارة الإسلامية على قاعدة اللغة العربية ومن ينتمون إليها. وهكذا ظل العرب ينتمون إلى أمة واحدة رغم تعدد السلطات والكيانات.

ما كاد ينتقل العرب من حال القبلية والعصبية إلى المدن، إلا وراح النضج الثقافي والحضاري يزدهر، فوضعت أصول الدراسات العربية والإسلامية في العهد الأموي. وفي العهد العباسي ازدهرت العلوم والفلسفة ورسخت قواعد التعريب الإداري، وأمست اللغة العربية مرجعا تُستلهم منها المبادئ والمثل والشريعة. ورغم أن دعوة الإسلام لم تفرق بين الأعراق والأجناس، فإن الإسلام لم يلغ كل ما كان عند العرب من عادات وتقاليد، فحتى يومنا هذا معظم المجتمعات العربية الإسلامية تحل مشاكلها حسب النظام العشائري رغم وجود النصوص التشريعية والقوانين الوضعية في المجتمع المدني. وكان في الماضي حتى أيام الخلافة العربية الإسلامية لا تعطى المناصب العليا في الدولة لمن ليس من أصل عربي، فأبقى هذا على العرقية والقبلية، وتلك كانت المرحلة الأولى من وعي العرب لخصوصية هويتهم القومية. فكانت اللغة العربية نتاج تاريخ العرب، وهو ما يؤكد على ان المجتمع الذي يشعر بهوية واحدة يقوم بصياغة لغة خاصة به يحقق من خلالها تواصله وتمكنه من التعبير عن ذاته بطريقة تميزه عن الأمم الأخرى. ومع تطور الحياة وتحول المجتمع القبلي إلى حضري واتساع الأمصار وازدياد عدد السكان، تراجع البنيان القبلي لصالح الانتماء إلى المدينة ومن هنا نشأت الأمة.

هذا، ومن الملاحظ أن الثقافة العربية ارتقت مع تداعي نظام الخلافة العربية بعكس ما هو مفترض ومتوقع، إذ المألوف أن يكون هناك تواز في الصعود والتداعي بين خطي النهضة والسلطة، إلا أن ذلك لم يحدث بالنسبة للعرب، فرغم زوال دولتهم العباسية الإسلامية فإن شعورهم القومي ازداد مع مرور السنين. وهذا يدل أنه لم يحدث انقطاع عربي ثقافي مع انهيار الدولة العربية الواحدة وتمزقها إلى ممالك وإمارات رغم ضعف السلطان السياسي. وهذا يدل على أن الثقافة لم تكن رديفة للسلطة السياسية، فقد كانت تعبيرًا عن وجدان أمة عدا الجغرافيا واللغة، كانت ترتبط بشحنات عاطفية وتراثية أثراها الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني للأمة العربية. ولما اشتد الضغط على العرب وفقدوا الخلافة وأصبحت للعثمانيين، اتسمت تلك الفترة بالتخلف واستبداد السلطان. ولما ضعفت السلطنة

العثمانية، أصاب البناء الثقافي والحضاري العربي الإنهاك والاضمحلال، وأدى إلى ضعف المقاومة العربية للغزو الغربي الذي بدأ زحفًا برتغاليًا، ثم احتلالاً بريطانيًا وفرنسيًا.

هذا، وبرزت اتجاهات اجتماعية جديدة ودعوات فكرية إلى التحديث، قادها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وغيرهما، وتأثر بهؤلاء، محمد فريد ووقاسم أمين وأحمد لطفي السيد والشيخ طاهر الجزائري والشيح حسين الجسر ومحمد على كرد وعبد الحميد الزهاوي ومحمد رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان ومحمد بيرم التونسي والطاهر بن عاشور.. وكثير غيرهم.

ويمكن القول بأن القومية العربية في العصر الحديث قد تشكلت مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أو عصر القوميات كما يسميه البعض. فكان من رواد حركة القومية العربية مفكرون من أمثال ساطع الحصري، زكي الأرسوزي، عبد الرحمن عزام، ومحمد عزة دروزة. وكان من تجليات الفكر القومي وسطوع نجم العروبة والقومية العربية قيام الثورة العربية الكبرى من مهد الإسلام مكة المكرمة، تلك الثورة التي قادها الشريف "حسين بن علي" والي مكة. لكن الآمال المعقودة على الحصول على دولة الوحدة تقوضت بأسرها بعد عقد فرنسا وبريطانيا اتفاقيات "سايكس – بيكو" بعد إسقاط الخلافة العثمانية التي بموجبها تم اقتسام إرث الإمبراطورية العثمانية.

- علم الثورة العربية هو علم الدولة العربية الموحدة فهو أول علم عربي حديث -

وليس غريبًا في القرنين العشرين والحادي والعشرين، أن نلاحظ بأن طبيعة المواجهة والتحدي مع النفوذ الغربي وإسرائيل قد حكمت تطور مفهوم الهوية عند العرب. ففي المشرق العربي، ظل النضال الوطني قوميا خالصا إلى حد ما، وحتى ان حركة المقاومة الإسلامية "حماس" أعلنت رسميا عام ١٩٩٥م بأنها حركة مقاومة إسلامية فلسطينية ولم تقل إسلامية عالمية، ويرجع ذلك لعدة أسباب أهمها: أن العربية لغة وثقافة انبثقت من هذه المنطقة، وكونها وجدت قبل الإسلام بزمن طويل، والقرآن نزل على هؤلاء الناس عربيًا وبلغتهم، ولم يكن غريبًا حينما وصل إلى مصر وبلاد الشام والعراق حيث العربية لم تكن غريبة عن سكان هذه المناطق، فلما اعتنق جزء من السكان الإسلام وبقي آخرون على دياناتهم، ظلت اللغة العربية من الأهمية على بقائها عاملاً توحيديا وتجسيدا للوحدة الوطنية، واستمر هذا الحال حتى الآن.

في المغرب العربي كان الحال مختلفًا، فقد تداخلت المعاني القومية والدينية في النضال الوطني، ويرجع ذلك إلى أن أقطار المغرب العربي كان لها وضع خاص حتى حين احتلها الرومان وفتحها العرب وجاء بعدهم العثمانيون، فقد تمتعت بخصوصية وكانت تحكم بنظام سياسي شبه مستقل، وبعد ذلك استفردت بها دول الاستعمار فتأثرت اللغة العربية في تلك البلاد، وأضحى راسخا في العقول المغاربية التي تعودت دولها أن تظل شبه مستقلة حتى وهي مستعمرات للغير، إلا تكتسب أي محتوى إلا بالإسلام نظرًا لتعدد الأعراق فيها عرب وأمازيغ وبربر، وأصبح التفكير في العروبة من مدخل انفصالها عن الإسلام أمرا غير مفهوما. هذا عدا أن وجود جاليات يهودية ملموسة في أقطار المغرب العربي بقيت حذرة من الاندماج مع الأغلبية الإسلامية، فصار انتماؤها أقرب إلى الولاء القطري منه إلى الولاء القومي العربي.

لو تحدثنا عن الهوية العربية سنجد أن معناها في السياق الواسع هو أنها كل شيء يختلف عن غيره، سواء كان هذا الشيء شخصًا أو مجموعات أو أي شيء آخر غير البشر. فالهوية الشخصية بالتحديد تعرّف شخصًا ما بشكله واسمه وصفاته

وسلوكه وانتمائه وجنسه ووعيه وثقافته وأكثر من هذا. وأما الهوية القومية فتدل على ميزات وصفات مشتركة لمجموعة بشرية تميز أصحابها عن الآخرين بأنهم يعيشون على أرض واحدة ويتحدثون نفس اللغة ويشتركون في التاريخ والحضارة والثقافة والطموح، وبما ينتج عن تفاعل هذه الأشياء مع حياتهم كأفراد وكجماعة. إذا الهوية العربية لو صح القول، هي، اختزال لكل ما سبق من تعريف تشكل منه سمات أساسية مشتركة هي اللغة والدين والثقافة والحضارة القومية. لهذا نشطت الصهيونية في تحدي ومواجهة القومية العربية، لأن الساحة لا تتسع لقوميتين، ولا بد لإحداها أن تلغي الثانية، ليس من باب إفناء كل البشر في المنطقة، وإنما من الناحية الثقافية والحضارية. الاحتلال الاستيطاني الإسرائيلي منذ قدومه، قدم نموذجا في كيف يمحو الهوية العربية في فلسطين، فنجده قد ركز على محو التراث العربي ونسبه إلى التراث العبري، وبعد ذلك عمل على تحويل الصراع بين مسلمين ويهود وبين دولة فلسطين ودولة إسرائيل في محاولة لتغييب الدور القومي العربي وتشويه المسلمين عن عمد، وأصر على نسج الاتفاقيات مع كل طرف عربي على حدة عن قصد وتعمد لإبقاء الأقطار والتكتلات العربية متباعدة عن بعضها حسب نهج الإلغاء للقومية العربية ومنع حدوث وحدة شاملة. وما محاولات إسرائيل إلى طمس كل ما له علاقة بالعرب والمسلمين في مدينة القدس مثلاً وإعطائه أسماء عبرية إلا ويصب في نهر الهدف الصهيوني من أجل إفناء الحضارة العربية الإسلامية. فحائط البراق الذي يحد المسجد الأقصى من جهة الغرب، أطلقوا عليه اسم "حائط المبكى" وضموه إلى آثارهم. وما حائط البراق إلا أحد الأمثلة الكثيرة من الأماكن الفلسطينية التي عمدت إسرائيل إلى تغييرها. هم يدعون أيضًا بأن لهم آثارا في العراق وفي الأردن وفي السعودية وفي بلاد عربية أخرى بل ويقولون بأنهم من بنوا الأهرامات في مصر أيضًا.

لا أحد ينكر بأن القومية العربية قد تلقت ضربة قوية بسبب خلق دولة إسرائيل، وقد تمثلت تلك الضربة على الأقل بهزيمة العرب في عام ١٩٦٧م. تلك الضربة التي أضعفت التيار القومي العربي، وساعدت على جعل الأقطار العربية تبحث عن مصالحها الخاصة، وتذهب للبحث عن السلامة في الدولة القطرية التي وجدت

ضالتها وملاذها في اللجوء إلى القوى العالمية المتنفذة للاحتماء بها على ما في هذا من خسارة من سيادة الدولة القطرية، وأدى هذا إلى تبديل الأيديولوجية القومية الوحدوية في الدولة القطرية إلى الأيديولوجية الإقليمية. منذ تلك الفترة.. بعد تلقي العرب لتلك الضربة المؤلمة تداعت الأمور، فكانت معاهدة "كامب ديفيد ١٩٧٩" التي وقعها أنور السادات عن مصر ومناحم بيجن عن إسرائيل، وما أتى بعدها من تخاذل عربي، وانحسار قومي أوجد علاقات اقتصادية وسياسية بين كثير من الأقطار العربية وإسرائيل.

وهنا لا بد من الإشارة وبلا مواراة إلى الإنجاز التاريخي الذي حققه الإسلام للعرب الذي جعل منهم يومًا قوة وأصحاب رسالة بهرت الدنيا وجعلتهم يتبوؤن مقاما عاليا في المعمورة، مهابين وأصحاب نفوذ بين الأمم والشعوب، وليسوا كما هي الأنظمة الحاكمة في الأقطار العربية في هذا العصر، التي تخاف انتقاد إسرائيل علنا في وسائل إعلامها الرسمية. الإسلام لم يمس في جوانبه الإيجابية العرب المسلمين فقط بل كان إنجازا لكل العرب على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم وأقطارهم، ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم أمة واحدة من خلال هذه الدعوة الكريمة. ومن خلالها أيضًا استطاعوا أن ينشروا رسالتهم الحضارية في أرجاء أقطار المعمورة إبان عصرهم الذهبي. ومن هذا أيضًا يمكن أن تتحقق الوحدة القومية القادرة على إحداث تحولات رئيسية في الهيكل السياسي والاجتماعي للأمة العربية بما تتيحه السياسة التي لا بد من التعامل بها مع الدول المتنفذة الغير إسلامية.

لقد تم تعريف القومية اصطلاحًا (الإسلام والحضارة - د. محمد محمد حسين): "بأنها مبدأ سياسي اجتماعي يفضل معه صاحبه كل ما يتعلق بأمته على سواه مما يتعلق بغيرها أو هو عقيدة تصور وعيا جديدًا يمجد فيه الإنسان جماعة محدودة من الناس يضمها إطار جغرافي ثابت، ويجمعها تراث مشترك وتنتمي إلى أصول عرقية واحدة".

الباحثون اختلفوا في نشأة القومية العربية، فقد رآها البعض بأنها ترجع إلى العصر الجاهلي استنادا إلى مفهوم العصبية الذي طرحه "ابن خلدون" في مقدمته

الشهيرة، وآخرون إلى سياسة "محمد علي باشا" المصري في بلاد الشام، في حين ربطها البعض بظهور الحركات التحررية الإسلامية كالوهابية، والمهدية والسنوسية، والبعض الآخر بظروف القرن العشرين كظاهرة من ظواهر تطور الفكر السياسي. يرى الدكتور سيد عشماوي من جامعة باتنة بالجزائر، أن القومية تختلف عن الوطنية وبينهما فاصل كبير، هو، أن الوطنية نزعة عاطفية نحو الوطن ذاته وعاطفة إنسانية تربط الفرد بالوطن الصغير. وقام المفكرون بدراسة الظاهرة القومية في أوروبا وحللوها، البعض منهم من عزا التشكل القومي على العامل الجغرافي، وآخرون على العامل الثقافي، وقسم ثالث ركز على نظرية اللغة والتاريخ والتراث والعقيدة ومن هؤلاء العلامة "عبد الحميد بن باديس". وفي هذا يقال بأن الجزائر عرفت كبلد قومي قبل دخول الاستعمار.

في العصر الحديث تعتبر القومية العربية هي الأيدولوجيا القومية العربية الأكثر شيوعًا في بلاد العرب بالذات في فترة الستينات والسبعينات من القرن العشرين تلك الفترة التي تميزت بالمد القومي الوحدوي الناصري نسبة إلى جمال عبد الناصر حيث قيام الجمهورية العربية المتحدة التي ضمت مصر وسورية سنة ١٩٥٨م. ويؤمن القوميون العرب بصفة عامة بالعروبة كعقيدة ناتجة عن تراث مشترك من اللغة والثقافة والتاريخ والدين الإسلامي إضافة إلى مبدأ حرية الأديان. كما ان الوحدة هي هدف وحلم معظم القوميين العرب.

لقد تطور مفهوم الوحدة العربية الذي ساد في حقبة الستينات وأواخر السبعينات إلى فهم جديد اقترب كثيرًا من مشروع الاتحاد الأوروبي، أي الدعوة للانصهار في كتلة ذات سياسة خارجية موحدة، وذات ثقل اقتصادي كبير يقوم على التكامل الاقتصادي والعملة الموحدة وحرية انتقال الأفراد والبضائع بين الأقطار المختلفة، بالإضافة لتفعيل اتفاقية الدفاع العربي المشترك للوصول إلى اتحاد عربي مع المحافظة على الخصوصية الثقافية للأقطار العربية كل على حدة، غير أن معظم المشاريع الاتحادية العربية بقيت حبرا على ورق.

ولما كان الأمر كذلك فربما من المفيد أن نفهم على الأقل معنى العروبة والقومية. العروبة هي المصطلح المرادف لمعنى القومية العربية لكن هناك من يقول بالفرق بين العروبة والقومية العربية. وهناك من ينادي بفك الازدواج بين العروبة والقومية العربية للمساعدة في توضيح المقصود من حيث المعنى اللغوي والسياسي ومن هؤلاء الكاتب العراقي "حسن العلوي" حيث وصف العروبة والقومية العربية بالتوأم الوهمي. فالعروبة انتساب إلى العرب وتعني فقط الانتساب المجرد عن المعنى السياسي، فمن الممكن للإسلامي أن يكون عروبيًا وللماركسي أن يكون عروبيًا لأن العروبة مجردة من المعنى السياسي فهي شعور بالانتماء لا أكثر. وأما القومية العربية عند البعض فتعني القوم المنحدرين نسبًا من صلب جد واحد، ومع التطور التاريخي انسلخ مصطلح القومية عن جذوره اللغوية فأصبح معناه قريبًا من معنى الأمة، وأصبح ذا دلالة سياسية.

دعنا الآن نعود إلى كيف تطور الفكر القومي في العصر الحديث من ناحية التطبيق على أرض الواقع حينما لم يسعه القطر الواحد: نجد أن الدافع القومي العربي كان الأقوى حينما قاد محمد علي والي مصر وركب موجة القومية واندفع رافعا الراية العربية وذهبت جيوشه بقيادة ابنه "إبراهيم باشا" تتحدى سلطة الباب العالي في اسطنبول سنة ١٨٣٩م، ولولا التدخل الأجنبي ضد محمد علي لكان قد كتب التاريخ بطريقة أخرى. لهذا نجد أن أول إرهاصات القومية العربية كانت في بلاد الشام بعد حملة "محمد علي باشا" حينما تحدى الخلافة الإسلامية وكاد أن يستعيد الخلافة للعرب بقيادة مصر لولا التدخل الأوروبي الذي تبع ذلك ومنع محمد علي أن يحقق هدفه. وبعد ذلك كانت مطالب القوميين العرب محدودة بالإصلاح داخل الدولة العثمانية، والمطالبة باستخدام أوسع للغة العربية في التعليم والإدارات المحلية، وإبقاء المجندين العرب في وقت السلم في خدمات محلية. ولما طرأ التشدد على المطالب العربية أثر ثورة عام ١٩٠٨ في الأستانة وبرنامج التتريك الذي فرضته حكومة جمعية الاتحاد والترقي المعروفة بتركيا الفتاة. إلا أنه حتى ذلك الوقت لم يمثل القوميون العرب تيارًا شعبيًا يعتد به حتى في سورية المعقل القومي الأقوى

آنـذاك، فمعظـم العـرب كـان ولاؤهـم لـدينهم أو طـائفتهم أو قبيلـتهم أو حكومـاتهم المحلية. كانت أبرز الحركات القومية العربية آنذاك متجسمة في جمعيات ونواد مثل جمعيـة العربيـة الفتـاة، الجمعيـة العلميـة الـسورية، المنتـدى الأدبـي، الجمعيـة القحطانية، جمعية العهد، وغيرها من الجمعيات التي قامت على فكر قومي عربي ينشد مجدًا عربيًا خالصًا.

وخلال تداعي السلطة العثمانية وضعفها تزايدت المشاعر القومية، وساعد القمع العنيف للجمعيات السرية في دمشق وبيروت من قبل جمال باشا التركي وإعدامه الكثير من الوطنيين في عامي ١٩١٥ و١٩١٦م على تقوية المشاعر المضادة للأتراك بينما الثورة العربية اندلعت بقيادة الشريف حسين بن علي حاكم مكة في ذلك الوقت، وعلى أثر ذلك هُزم العثمانيون ودخلت القبائل العربية الموالية لفيصل ابن الشريف حسين دمشق عام ١٩١٨م. حينها شهدت القومية العربية أولى محاولاتها لإقامة المملكة العربية بقيادة الملك فيصل الأول.

يرى المفكر "محمد عزة دروزة" العرب كجنس واحد ينشد الوحدة السياسية والتاريخية منذ البدء ومن أقدم أزمنة التاريخ. وبالتالي فإن مطلب الوحدة القومية، من وجهة نظر دروزة، هو مطلب يتخطى التاريخ الواقعي ويهيمن عليه. إنه بداهة التاريخ العربي الذي يتعين إكماله بوحدة فعلية شاملة قوامها التوحيد السياسي، وهذه ضرورة تاريخية يفرضها الواقع العربي. وأما "ساطع الحصري" فقد لعبت لديه الأهمية الحاسمة للعوامل اللغوية والروحية العاطفية والمعنوية دورًا حاسمًا. وهنا يحاكي ساطع الحصري محمد عزة دروزة حيث يؤمن بأن الشعور القومي معطى أزلي وثابت، متأصل لدى كافة الأفراد المنتسبين للأمة. واللغة من هذا المنظور هي من أهم الروابط المعنوية التي عملت على صناعة الفكر القومي العربي.

عند تشكيل أية أمة لا بد أن تطابق حدودها الثقافية اللغوية مع حدودها السياسية. وقد سعى المفكرون القوميون العرب إلى تأسيس الدولة على قاعدة الأمة المنشودة، التي يتسع مداها لتشمل كل الناطقين بالعربية لتتحول مجموعة الدول

القومية إلى شكل أسمى لدولة الأمة. يرى المفكر "زكي الأرسوزي" بأن الانتماء يقوم على شعور فطري سابق على العقل، فلا مناص للفرد من انتمائه القومي. ولهذا كان يقول: "إن البعث يقوم على الشعور القومي الذي هو فيما وراء العقل، في الغريزة". هذا، ويعتبر "عزيز السيد جاسم" أن رسالة الفكر القومي العربي هي مواصلة النمو والتطور والحماية من الركود والتخلف والتراجع.

لهذا، لا يمكن تحديد موعد لبداية التفكير بالوحدة العربية، فالوحدة العربية كانت دومًا كما يقول "محمد عزة دروزة" هدف العرب، مع أنها لم تتجسد فعليًا حتى ظهور الإسلام الذي ألف بين قلوبهم، وربما يمكن اعتبار الدولة الأموية أول تجسيد لدولة العرب الكبرى.

في العصر الحديث جاء الفكر القومي منذ لحظته التأسيسية ردة فعل على انهيار الرابطة الإسلامية نتيجة الأزمة الحضارية الشاملة للإمبراطورية العثمانية وصعود الأفكار والمشاريع القومية، خصوصًا في الجزء الأوروبي من تلك الإمبراطورية، قبل أن يفكر العرب في إيجاد الطروحات والمسوغات الفكرية لمشروعهم القومي.

في بداية الأمر لم يفكر العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية، حيث سبقت الحركة القومية حركة إصلاح اتجهت إلى إنقاذ الإسلام السياسي من التخلف الذي ظهر في المواجهة مع الغرب (حركة التنظيمات). حاولوا أن يبلوروا هويتهم القومية من أجل تحسين سبل المشاركة مع العثمانيين بوصف العرب أصحاب مساهمة أساسية في الحضارة، لأنهم قدموا للشعوب الأخرى رسالة الإسلام. سعى العرب حتى مرحلة متقدمة لأن يشكلوا دولة اتحادية، وطالبوا باللامركزية السياسية والاتحاد الفيدرالي مع الأتراك. هذا على الأقل ما كانت عليه الأمور حتى المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣م. ولعل خير تجسيد لذلك حركة المفكرين العرب الإصلاحيين وكذلك المسلمين من جنسيات مختلفة، مثل، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، وشكيب أرسلان.

كان دافع العرب للفكر القومي من باب إحياء الإسلام. ذلك أن العرب اعتبروا دائمًا أن لهم الفضل الأكبر في الحضارة الإسلامية. واعتقدوا أن الإسلام السياسي غير

العربي ساهم في التقهقر والتخلف ورأوا وجوب إحياء التراث العربي كمقدمة لمشروع النهضة. وليس مصادفة أن أول مهمة للإحياء العربي كانت متجهة إلى إحياء اللغة العربية وآدابها. فلم يكن العرب يفكرون في أنهم يمتازون عنصريًا على غيرهم من الشعوب التي شاركتهم في الدين الإسلامي. لذلك نجد أن الفكر القومي العربي غالبًا ما ركز على التراث اللغوي والآداب، وعلى المرجع اللغوي الأهم الحاضن للثقافة العربية أي القرآن الكريم والشريعة.

لقد كان دافع يقظة العرب القومية محاولة لإحياء الإسلام السياسي وليس للانفصال عنه. وقد ظلت هذه الملابسة قائمة حتى الآن. بل إن العرب لم يفكروا في الانفصال عن الدولة العثمانية ولم يقطعوا حبل اتصالهم الديني بها إلا في فترة متأخرة مع ضعف وانهيار الدولة العثمانية وسيطرة الاستعمار الأوروبي. كان الاهتمام بلغة الضاد هو الأول لاستنهاض العروبة، كما كانت العودة إلى نقاوة الإسلام الأول إيذانًا بالحديث عن الدور العربي في الإسلام وكيف أن الإسلام ساد وانتشر وكان العرب هم أول من حمل الشعلة.

عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٣م) من الرواد، وهو الذي كتب "طبائع الاستبداد" و"أم القرى". وعالج بصورة أساسية تخلف الإسلام بسبب غياب الدولة المستندة إلى الحرية وإحكام العقل، ودعا إلى إعادة الدولة إلى طريق العدالة ونقل السلطة إلى العرب أولئك الذين قدموا رسالة الإسلام بصفته النظام العادل.

وبسبب أن مسيحييّ سورية كانوا أكثر تحررًا من زملائهم المسلمين في النظرة إلى طبيعة الدولة الحديثة، فلم يكن لديهم هذا الالتباس مع الإسلام. وهذا ما تجلى في فكر "بطرس البستاني" الذي قال عنه الصحفي والمؤرخ اللبناني "جرجي نقولا باز": "انه كان أول من ناصر المرأة في سورية على منبرٍ، بل أول رسول نسائي سوري دعا إلى تعليمها وتهذيبها.. وكان بودّه إنشاء مدرسة نسائية كالمدرسة الوطنية ما ساعدته عليها الأيام". هذا، وقد أسهمت الأحداث الطائفية في لبنان وسورية (١٨٦٠-١٨٦١م) بالانتماء المواطني على أساس القومية بعيدًا عن الانتماءات الدينية.

وفي ذلك الزمن اشتغل المؤرخون على فكرة التاريخ الواحد لسورية، ومنهم المطران الماروني يوسف الدبس. ودعا جرجي زيان إلى إحياء التراث العربي من خلال سلسلة رواياته التاريخية. أما نجيب عازوري الكاثوليكي فقد أسس عصبة الوطن العربي عام ١٩٠٤ وأصدر مجلة في عام ١٩٠٧م تعنى بمسألة الاستقلال العربي. ويعتبر كتابه "يقظة الأمة العربية" المنشور عام ١٩٠٧م والذي يتحدث فيه عن أمة عربية مكونة من مسيحيين ومسلمين، ووجوب إقامة دولة على أسس دستورية وليبرالية هو الأكثر أهمية بين ما نشر في تلك الفترة.

ومع ظهور الحركة القومية التركية وصعود "تركيا الفتاة" والنزعة الطورانية نسبة إلى أصول الترك، تطور موقف غالبية المثقفين العرب باتجاه بلورة المشروع القومي وقد كانت بداية هذا المسار المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس عام ١٩١٣. إلا أن معظم أفكار هؤلاء المثقفين العرب بقيت تطالب باللامركزية حتى اشتعال الحرب العالمية الأولى وقيام الحركة العربية بقيادة الملك فيصل (١٩١٦م) جراء الوعود الغربية بتحقيق استقلال العرب.

لقد عمل المفكرون القوميون على بلورة المشروع القومي باتجاهاته المختلفة في مطلع القرن العشرين أو النصف الأول منه حيث تأثروا بهذه العناصر، فلم يتجه الفكر القومي العربي إلى العنصرية (العرق) القومية كأساس في المشروع القومي، فهم ركزوا بصورة أساسية على اللغة والثقافة (ومنهم بشكل خاص قسطنطين زريق) أو كما هو حال المفكر العربي ميشال عفلق، الذي رأى في الإسلام روح الأمة ورسالتها الحضارية. أو حتى أنطوان سعادة في نظرته إلى المتحد القومي على أساس علماني غير معادٍ للدين. من هنا نعتقد أن فكرة العروبة كرابطة حضارية هي أفضل ما يمكن أن يعاد بناء الفكر القومي عليه في المرحلة المعاصرة. العروبة بصفتها الهوية الثقافية والحضارية غير المعادية للتراث الديني بتفرعاته الإسلامية والمسيحية.

كان من وعي المثقفين العرب في ذلك الوقت أنهم اطلعوا على الفكر القومي الغربي (الأوروبي) بصيغته النظرية قبل أن يتجسد في الدولة القومية في النصف الأول من القرن العشرين. لكن هذا الفكر القومي ارتبط بأفكار النهضة بداية وعنى بشكل خاص بموضوع الإصلاح. لقد بدأت فكرة الدولة القومية في أوروبا كمشروع لبناء دولة حديثة مرتبطة بتطور الاقتصاد وحق الأسواق البرجوازية بالحدود والحماية. قاوم هذا الفكر الهيمنة السياسية للكنيسة والإقطاع، وحيث كانت الكنيسة والإقطاع عنصري تجزئة وتخلف في وجه السوق القومي واحتياجاته للتوسع والنمو.

كان منتصف القرن التاسع عشر بداية واضحة للضعف العثماني، فقد خسرت تركيا الحرب مع روسيا واقتحمت فرنسا عددًا من ولاياتها، وأضحى يطلق على الخلافة العثمانية رجل أوروبا المريض. فقد بدأت الحركات القومية الانفصالية في بلاد اليونان ووقع المغرب العربي تحت الاحتلال الفرنسي وانفصلت مصر عن الدولة، وشهدت بلاد الشام العديد من الانتفاضات الشعبية الفلاحية والحرفية. وعلى أثر ذلك بدأت حركة من الإصلاحات داخل تنظيمات دولة الخلافة بهدف مواجهة هذه التحديات ولكن هذا لم يوقف تراجع القوة في الخلافة العثمانية.

القوميون العرب ومفكرو القومية العربية يؤمنون بأن الأصل في الوحدة هو الانسجام وهو الخير والقوة، وأن التجزئة القطرية عارضة ومصطنعة بدأها الاستعمار واستكملتها أنظمة الحكم القمعية التي نشأت في البلدان العربية بعد الحرب العالمية الثانية لتقوية الشعور القُطري وواقع التجزئة والحفاظ على عروش اغتصبوها وكراسي لم يستحقوها. من الأدلة الواضحة على هذا الإبعاد المتعمد للشعب عن فكرة القومية وإحياء النزعات العرقية (من فرعونية وفينيقية وإفريقية، الخ) ورفع شعارات القطرية بكل وضوح، مثل شعار "مصر أولا" و"الأردن أولاً" و"لبنان أولاً" الخ، وبقبول استبدال اللغة العربية بالإنجليزية أو الفرنسية في العقود والمواثيق الهامة والبيع والشراء والمؤسسات الصحية وتصوير اللغة العربية كلغة الطبقات الدنيا في المجتمع.

إن التجييش الإعلامي والتضخيم السياسي لمباراة تصفيات كاس العالم بين مصر والجزائر عام ٢٠١٠م والتداعيات الخطيرة قبلها وخلالها وبعدها كان قمة السقوط للأنظمة الحاكمة. ولذلك فهي حالة شرّ وفساد. فالوحدة تبدأ من وحدة اللغة والمشاعر والثقافة والتاريخ والجغرافيا وتستمر بحكم التحديات المشتركة (حالة الاستعمار والتخلف والجهل). وأضيفت في الأدبيات القومية الأخيرة (المشروع النهضوي العربي) وهي مسألة المستقبل المشترك والمنافع المشتركة التكامل الاقتصادي مثلاً كدوافع إضافية لنشوء الوحدة العربية. هذا، وقد تنبه المفكرون القوميون إلى أهمية الديمقراطية ودولة المواطنة في الفكر القومي العربي. وبالتالي أصبح الطرح أكثر موائمة للواقع الحالي للأقطار العربية ولمخاوف المواطنين من استبدال النظام القمعي القطري (سواء كان طائفيًا أو فئويًا أو عشائريًا أو إقليميًا) بنظام قمعي قومي أكثر قوة وشرعية. من شأن هذا الطرح الجديد هو أن يجذب فئات معارضة تقليديًا للمشروع القومي مثل الأقليات العرقية والدينية، ولهذا ما يكاد يحدث تململ قومي إلا وتصحو العرقيات خيفة وتوجسًا مما قد يصيبها من ضرر، فتطلق المخاوف بالدعوة إلى الحرية والديمقراطية لطمأنة الجميع. ومن المؤكد أن رياح التغيير التي عصفت بأنظمة الاستبداد العربية الإقليمية التي انطلقت من تونس أولاً ثم مصر وليبيا واليمن وما تلا من تغييرات خلال التوجه الديمقراطي في المجتمع العربي سنة ٢٠١١م، هي قطعًا ستواجه تحديات عوارض المسيرة التاريخية للأمة العربية التي قد توجد مستقبلا. وتظل الثورات العربية خطوة جريئة إلى الإمام في سبيل نفس الهدف، والتأخير في تحقيق الاتحاد العربي لو حدث سيعود سببه إلى أن رياح الثورات أتت من الخارج من بعيد من جبال ووديان وحملت معها أشياء كما تحمل سيول مياه الأمطار التي تجلب معها بعض الغبار وزغب النباتات حينما تهطل على الأماكن المختلفة وتنحدر إلى البحيرة عند مصباتها، وحيث الغبار والزغب ما هي إلا التدخلات الأجنبية. فكما تم تلويث الثورة العربية الكبرى بما نتج بعد سقوط الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى حيث تآمر عليها الإنجليز والفرنسيون (سايكس – بيكو) فقد يحدث أن تلوث الولايات المتحدة وأوروبا المسيرة الديمقراطية العربية وتحاول ان تبطئها

أو تحتويها أو توجهها كما احتوت وخلقت وشجعت الأنظمة التي نتجت عن "سايكس بيكو" سابقا، هذا إلا إذا استمرت المسيرة ولم تتوقف باعتبار ان الشعب العربي قد وعى الدرس.

فالمشروع القومي العربي ليس بدعة، والوحدة العربية ضرورة، والديمقراطية حق وواجب، وبهذه المرتكزات تصبح مهمة الحركة القومية العربية أن تحوِّل الأمة الموحدة من حال الوجود بالقوة، على حد تعبير "الفيلسوف أرسطو"، إلى حال الوجود بالفعل.

▪ مقومات الوحدة العربية

تعتبر الوحدة أو الاتحاد ضرورة للأمة العربية كما هي ضرورية للإنسان الواحد، وذلك لعدة عوامل من أهمها لأن الإنسان مفطور على الوحدة. وهناك عدة مقومات اختيارية وأخرى غير اختيارية للوحدة. أما المقومات اللا اختيارية فنعني بها العوامل التي تجمع بين أفراد المجتمع أو يشتركون فيها من غير أن يكون للفرد فرصة اختيار أو عدم اختيار، إن الفرد يكتسبها بحكم مولده وليس بإرادته، مثل: العنصر (الجنس)، والأرض (الوطن)، والتاريخ، واللغة، والدين عن طريق الوالدين.

وأما العوامل الاختيارية فهي العوامل التي تربط بين أفراد المجتمع، ويملك الأفراد حرية اختيارها أو تغييرها مثل: العقائد والأفكار والأهداف، حيث يملك الفرد فيها خيارات متعددة. ولأن هذه المقومات الاختيارية مبنية على إرادة وقناعة الإنسان نفسه، فإن تأثيرها على مناعة الوحدة كبير.
هذا، وبالرغم من أهمية دور المقومات اللا اختيارية إلا أنها لا تكفي لوحدها لإقامة وحدة متماسكة وقوية، فأحيانًا قد تتوفر هذه المقومات اللا اختيارية ولا تتحقق الوحدة. بل أن تاريخ الأمم الذي وصل إلينا أثبت أن الحروب والصراعات التي دارت بين من تجمعهم روابط لا اختيارية فقط أكثر من تلك التي دارت بين من لا تجمعهم

أية روابط. وهذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أننا نعني التقليل من الدور الذي مازالت تلعبه المقومات اللا اختيارية في تقريب الناس وتوحيد الجماعات والشعوب وتذكيرهم بأهمية الوحدة، خاصة إذا ما توفرت بجانبها مقومات اختيارية واضحة.

ما أكثر المقومات اللا اختيارية والاختيارية التي يمتاز بها الشعب والوطن العربي. فلو تحدثنا عن وحدة الجنس مثلاً، نجد أن سكان العالم العربي ينتمون إلى أصل عرقي واحد هو الجنس السامي وفي ذلك ما يقوي من رابطة الدم بينهم. وشيء طبيعي أن يكون بعض العرب قد اختلطوا بأصول غير سامية، كما وتوجد في الوطن العربي أصول عرقية أخرى غير السامية ولكن بنسبة صغيرة وبعدد يسير، فإن هؤلاء أيضًا قد انصهروا مع السكان العرب الذين تجمعهم بهم مقومات وحدوية أخرى كوحدة الوطن ووحدة التاريخ.

وأما بالنسبة للوطن فنجد أن المناطق العربية كلها متجاورة لا تفصل بينها أراضي غير عربية، وهذا من شأنه أن يسهل التواصل ويعزز الروابط الوحدوية بين السكان ويجعل الدفاع عن الوطن ككل أسهل، وليس كما هي إسرائيل في فلسطين تفصل الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسورية) مما جعل الانفصال سهلاً عام ١٩٦١م. إن للغة الواحدة أهمية كبيرة كونها تعمل على توحيد المصادر الثقافية وتيسر التبادل الثقافي بين المواطنين، وهذا يسهل قيام وحدة عربية واستمرارها.

ما عدا بعض الاختلافات التفصيلية الناتجة عن الخصوصية نجد أن هناك تشابهًا كبيرًا في المضامين المحورية لتاريخ وتراث أجزاء الوطن العربي، وهذا التشابه قطعًا ينمي المشاعر الوحدوية النابعة عن وحدة المواقف التاريخية، ويقوي الدور الوحدوي للتراث. وفي هذا يجب ألا يغيب عنا، أن المقومات اللا اختيارية لا تتوفر كثيرًا في العالم الإسلامي وتتوفر في العالم العربي، العالم الإسلامي جنسيات مختلفة ولغات مختلفة، ولا تشكل أرض العالم الإسلامي امتدادًا متصلاً.

ومما لا شك فيه، أن العقيدة تعتبر من أهم المؤثرات التي تشكل سلوك الإنسان وخاصة عندما يكون متعلقًا بالموقف الانتمائي كالمشاعر الوحدوية. أن سكان

الوطن العربي الإسلامي يدينون بدين واحد وينتمون إلى عقيدة واحدة وهي من أهم مقومات الوحدة الاختيارية في الوطن العربي. التاريخ يشهد أن الطبيعية الخاصة لهذه العقيدة قد مكنتها أيضًا من استيعاب الأقليات في الوطن العربي، وساعدت على دمجها في الوحدة الوطنية السياسية.

وبإلقاء نظرة عامة على الأقطار العربية، نجد أنها تعاني من التخلف في المجال الاقتصادي والسياسي والعلمي وتتفق كلها في أنها تتطلع إلى ترك هذا التخلف، فالتنمية تمثل الهدف الأول الذي يجمع ويوحد بين الدول العربية على مستوى الحكومات والشعوب معا، لأن التنمية تدفع وتوجه إلى التكامل.
مما سبق يتبين أن العالم العربي والإسلامي يتمتعان بقدر كبير جدًا من مقومات الوحدة، وليس هناك عالما يتمتع بذات القدر من المقومات الوحدوية، لكن الواقع يؤكد أن العالم الإسلامي أكثر تمزقا وأقل تضامنًا، لقد كانت الشيوعية أكثر تضامنا قبل تفكك الاتحاد السوفيتي، وما زالت الرأسمالية أكثر تضامنًا من المسلمين رغم أن المقومات الوحدوية التي تتوفر للعالم العربي المسلم مثلاً أكبر بكثير من غرب أوروبا، علما بأن الاتحاد الأوروبي يتمتع بالوحدة أكثر مما يتمتع بها العرب في ظل جامعة الدول العربية.

السؤال الذي يفرض نفسه الآن: لماذا عجز العرب حتى الآن أن يحققوا الوحدة ؟ ولماذا بقي تضامنهم أقل من غيرهم من الشعوب بالرغم مما يتوفر لهم من مقومات، وبالرغم مما تتحدث به الأنظمة العربية عن وحدة الصف والهدف والتنسيق الخ؟

الجواب على هذا سهل: يجب ألا يغيب عنا خيال تأثير القوى العظمى بكل الوسائل لإبقاء الحال على ما هو عليه. بل من الخطأ أن ينتظر العرب لتأتي الوحدة من الخارج، لأن الخارج إن أتى فسيأتي لكي يعرقل الوحدة أو يوحي بشيء وحدوي مثل جامعة الدول العربية التي مضى على إنشائها ٦٦ عامًا ولم يتغير حال العرب. وأننا الآن نتخوف أيضًا من محاولة إفشال الثورات التي أسقطت الأنظمة الحاكمة بدء من تونس لأن محاولات الاحتواء لن تتوقف تلك التي تقوم بها الدول الكبرى.

إن من الضروري أن نعلم بأن الوحدة العربية لا تحتاج إلى أن نهزم القوى العظمى ونتغلب على دسائسها لكي نمضي إلى الوحدة، الوحدة تحتاج إلى أن نتغلب على عقباتنا الداخلية أولاً التي تعمل ضد الوحدة، فالقوى الخارجية لا تستطيع منع الوحدة إلا من ناحية خلق عقبات داخلية أخرى، وقد رأينا ذلك حينما قامت الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م .. لم يستطع أحد لا إسرائيل ولا من هم وراء إسرائيل منعها، لكنهم غذوا الدسائس والمؤامرات مع السلبيات الداخلية إلى أن فشلت.

لا شك بأن هناك تباينًا بين أنظمة الحكم العربية من الناحية السياسية بوجه خاص، وهذا يعتبر من العقبات الواجب التغلب عليها لتذليل طريق الوحدة العربية. هناك أنظمة يمينية وأنظمة يسارية، وأخرى بين بين، وهناك أنظمة جمهورية، وأخرى ملكية وراثية، وهناك أنظمة استبدادية، وأنظمة ذات أحزاب متعددة وأنظمة ذات حزب واحد وأنظمة لا حزبية، وجميع الأنظمة العربية قبل إسقاط بعض الأنظمة في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين كانت لا تنتهج نظام سياسي ديمقراطي عدا لبنان الذي فيه ديمقراطية إلا أنها طائفية. وحيث أن الوحدة تقتضي نوعًا من التجانس بين الأنظمة ولا تقوم بين أنظمة متناقضة، فالأمر يحتاج إلى إزالة هذا التناقض ولو بقدر معين لأن كل نظام حاكم في الأقطار العربية يعتقد بأنه الأصح والمناسب لكي يتبعه الآخرون.
لهذا ظل الصراع بين الأنظمة محل الوفاق، وبقيت كذلك الحرب والعداء محل التضامن والتوحد، وكثيرا ما تم قطع العلاقات الدبلوماسية بين قطر عربي وآخر بسبب تلك المواقف المتشنجة وبسبب حكم الفرد في معظم الدول العربية. وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على النظم الاقتصادية والتعليمية والثقافية، وهو ما أبقي التشرذم والفرقة والتخلف.

لهذا، ظل الحكام متمسكين بمصالحهم في كل قطر، وظل أصحاب كل نهج سياسي يعملون على تثبيته. فهناك من الحكام من ارتبطت مصالحه مع الوضع الحالي اللا وحدوي وهو بذلك لا يريد الوحدة خصوصًا في المجال السياسي والاقتصادي، لهذا

أيضًا ظل يحتكر السلطة السياسية والاقتصادية ويعيق كل توجه وحدوي عند شعبه، وقد شاهدنا كيف تشبث الحكام بكراسيهم أمام ثورات شعوبهم عام ٢٠١١م. فإذا نظرنا إلى هذا الأشكال نجد أن نسبة صغيرة من عدد السكان تمثل هذا الاتجاه اللاوحدوي، لكنها تقوم بالدور الفعال لعرقلة العمل الوحدوي لأنها تملك السلطة. هذا، غير أن النظرة المتأنية يمكنها أن تبين لنا أنه مهما تكن قوة هذه الفئة فلن تهزم الإرادة السياسية الشعبية إذا ما عزمت على شيء معين. من هنا يمكن القول بأن خمول الشعوب العربية وخنوعها هو ما يُمكن تلك الفئة من فرض توجهها والإبقاء على مصالحها وبقائها في الحكم.

إن الشعوب من ناحية أخرى ليست بريئة مما يحدث من تخلف وتشرذم في أقطارها الزعماء لا ينجبون الشعوب إنما الشعوب هي التي تنجب أبناءها.. كيفما تكونوا يولى عليكم. إن من الأمور السلبية الأخرى التي تنفر الناس وتكرههم بالوحدة ما يلاقيه عادة المواطن العربي حينما يزور أو يعمل في بلد عربي آخر حيث يلاقي اضطهادا أو عنصرية أو تعاليا، ويعود هذا إلى تدني المستوى التعليمي ونسبة الأمية العالية وعدم الوعي وغياب التوجيه التربوي والإعلامي في القطر المضيف.

وهل من العدل أن تكون دولة مثل إيطاليا من الدرجة الرابعة عالميا ناتجها السنوي أكبر من ناتج العالم العربي بما فيه الدول البترولية؟

هذا، وإن من المهم معرفته أيضًا، أن القوى الخارجية لا تألو جهدًا في إبقاء الحال على ما هو عليه في العالم العربي خوفا من ظهور دولة اتحادية قوية في هذه المنطقة من العالم تملك الإمكانيات والقوى المادية والروحية ما يضمن لها القدرة على وضع حد للسيطرة الأجنبية وتدخلاتها في شئون الوطن العربي. والدول الكبرى كثيرًا ما تكذب وتخدع وتخون أصدقاءها ولا تنحاز إلا إلى مصالحها. لهذا ليت القادة العرب يتعظوا مما حدث لرئيس مصر حسني مبارك ومعمر القذافي في ليبيا وزين العابدين بن علي في تونس وعلي عبد الله صالح في اليمن ومن هم على شاكلة هؤلاء وكيف كانوا أصدقاء لأمريكا، وأمريكا كانت أول من ساهم وشجع على إسقاطهم وذهبت تراهن على أحصنة أخرى لعربة مشاريعها الاستراتيجية في المنطقة العربية.

الناتج القومي الكلي للعالم العربي بالنسبة للدول الرئيسية في العالم
حسب تقرير مجلة Global Finance Magazine لعام ٢٠١٠م

الدولة	الناتج القومي (بالدولار الأمريكي)
العالم العربي بما فيه الدول البترولية	1.894 trillion
كندا	1.564 trillion
فرنسا	2.555 trillion
بريطانيا	2.259 trillion
روسيا	1.477 trillion
ألمانيا	3.306 trillion
اليابان	5.391 trillion
الصين	5.745 trillion
الولايات المتحدة الأمريكية	14.624 trillion
إيطاليا	2.037 trillion
أسبانيا	1.374 trillion
البرازيل	2.023 trillion
أستراليا	1.220 trillion